# العقل بين المعنى والمبنى

سبحان الذى أبدع المعانى وصور المبانى ، وهو الأعلم بأسرار خلقه ، ولا يُدرِك حكمته تعالى إلا هو. وبعد فمن الملاحظة والتأمل نجد أن أغلب الأشياء لها مبنى (Structure) ومعنى ، أو قالب وقلب ، فمثلا العبارة – كمبنى – مكونة من كلمات والكلمة مبنية من أحرف ، والعبارة ككل لها معنى أو أكثر ، فى عقولنا ، ولو فككنا الحروف أو بعثرناها لضاع المعنى والغاية – بسبب الفوضى التى هى آفة كل شىء – رغم وجود مفردات المبنى (المبعثرة). وأيضا الجسم البشرى – كما هو معلوم – مبنى من أعضاء ، والأعضاء مبنية من خلايا ، والخلايا مبنية من جزيئات ، والجزيئات مبنية من ذرات....إلخ ، وكل ذلك مشكل بنظم دقيقة ولغايات وحكم ذات معنى ؛ لأن هذا الإتقان المعجز لا يمكن أن يكون عبثا بلا معنى ، بل هو منفوخ فيه – من روح العليم الخبير – بالمعانى والآيات التى تضفى عليه ألوانا من الإبداع المعنوى قبل المادى.

الأعضاء والجوارح والحواس وأجهزة القياس والمراقبة والاستشعار وعلومها كلها تتوقف عند المبانى ؛ لأنها من نوعها ، أما العقل – نظرا للطفه – فهو الذى يمكن أن يتوصل إلى المعانى ، وإدراك المعنى هو أساس الفهم (الفقه) ، وتلك

هى أهم وظيفة عقلية. وحين تسيطر المبانى (الجامدة) على العقل يفسد ويقسو حتى يصير **كالحجارة أو أشد قسوة.**

وفى بداية هذا الفصل يلزم التنبيه إلى أنه لا ربط بين محتواه ومعانيه وبين الضلالات اللامعقولة والشائعة فى بعض تأويلات الباطن ، ولا ندعى أن له علاقة مقصودة بالفلسفة ، ولا نربطه – ولا أى جزء من هذا الكتاب – بعلم النفس (التقليدى) بسبب ما خالطه من دنس مظنون نتجنب شبهة الموافقة عليه. وغاية هذا الفصل هى محاولة تنمية ملكة التمييز عند الإنسان ؛ للتغلب على تشابكات القضايا ، لأنه بدون القدرة على التمييز فلا فكر ولا علم ولا معنى ولا فهم ولا فائدة تُرجى من العقل. وحين نستطيع التمييز فيمكن أن نبدأ فى تحديد الأهداف والغايات وتقويمها والبحث عن كيفية الوصول إليها أو تحقيقها ، ويتمكن الإنسان من التمييز بين ترقية العقول وتسمين العجول.

إن المعانى التى تمثل القيم الرفيعة التى يمارسها الإنسان كالخيرية والبر والرحمة والتعاون والإخاء والحب والإيثار والمودة والصدق والعدل والإيمان والحق والحرية والجمال... إلخ هى دليل على الكيان (الشق) المعنوى للإنسان ، وهذا الكيان يسمو فوق الشق البنائى (الجسدى) وما يرتبط به من نشاط غريزى تلقائى. وجدير بالذكر أنه ليس من الضرورى أن يبرز الناس كلهم هذه المعانى لإثبات الصفة المعنوية للإنسان ، إنما كل يمارسها بحسب تدرج نفسه فى الإنسانية.

# تفاعل المبنى مع المعنى

المعانى هى التى تحرك المشاعر الإنسانية وتُنشط العواطف – إيجابا أو سلبا – وذلك يُترجم عن طريق العقل (والمخ) إلى نشاط كيميائى بيولوجى بمبنى الجسم يمكن اختباره – فى الحال – بتحاليل الدم وقياس إفرازات الغدد وقياسات أخرى لم تكتشف بعد. والانفعال بالإشارة ينتج عن معناها ، وما يضُر من السِباب أو الهجاء هو معناه ، وأيضا ما يَسُر من المدح أو الثناء هو معناه ، وبالمناسبة فذلك يُبرز خطورة اللسان والكلمة والقلم ووسائل التعبير المختلفة وأثرها فى سلامة المجتمع أو فساده ، وأيضا على مصير الإنسان فى نهاية رحلة العمر. وهنا نعطر هذا المفهوم بأحسن الحديث الذى يفيض بأرقى المعانى ، ونشير إلى إحدى آيات النور ذات العلاقة ، ﴿**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُو إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾ – الآية 24 – سورة الحج.

وجود الصفات المعنوية فى النفس البشرية يُمكّنها – حين تصفو – من إدراك المعانى وما يحيط بها من أشياء ووقائع ونشاطات. وفى العادة أول ما يظهر لأعيننا (وحواسنا) من الشيء هو مبناه (القالب) ؛ لأنه يُحس وله معالم أقرب للوضوح والتحديد ، وهو لصيق بالمادة المظلمة ولا يصل أثره للنفس إلا من خلال العقل. ولمعرفة مبنى الشيء يلزم التشريح ثم مزيد من التشريح (أو التحليل) ، وتلك عملية محدودة وميسرة للعاقل وللأحمق. أما المعنى فهو كامن

غير محدود ولا محدد الموضع ولا المعالم ، ولإدراكه يلزم التفكر والتدبر وتسليط أكبر قدر من النور - وليس الضوء - لأن ضوء المادة مبنى ، لكن نور البصيرة معنى ، ولا يتيسر ذلك إلا للعاقل. فالمبنى إدراك حسى ، لكن المعنى إدراك عقلى ، والتفكر هو الذى يُخرج معانى الأشياء ويولدها. والتكامل قائم وأساسى بين المبنى والمعنى لكن التعويض محدود جدا بينهما فى هذا الدنيا ، فغياب أحدهما يصعب تعويضه بالآخر ، ولا غنى للإنسان عن كليهما.

المبنى محدد ومحدود لذلك يشعر الإنسان فيه بالضيق وأحيانا بالندرة والتزاحم ، ونتنافس على أن نحجز لأنفسنا مساحة منه قبل أن ينافسنا فيه الآخرون ، وذلك لأنه مجال نشاط الحواس وحركة الغرائز. ويتولد هذا الشعور بالضيق بسبب مرض المجتمع الذى نشأنا فيه وانعكاساته على العقول ؛ فهو مجتمع اقتنائى تنازعى تحاسدى. وتشاركنا العجماوات فى هذا الزحام ؛ لأنها تشترك معنا فى الحواس وبعض الغرائز وفى شيء من العقل ، والإحساس ببعض المبانى والقليل من المعانى على ما يبدو ، بل تتفوق علينا الكلاب - مثلا - فى حاستى الشم والسمع ، ويتفوق علينا الصقر فى حدة البصر. وكثيرا ما نجور على العجماوات حتى نفوز بنصيبها فى المبنى (المادى) - صراع فى صراع - خوفا من أن يضيق المبنى بنا وبها ، وخوفا من المستقبل المجهول وسط أفراد تملأهم الشكوك والشبهات ، والشيطان يخوفهم من الفقر ، فلا أمان ولا اطمئنان. ولكن يبقى لنا - كبشر - نعمة خاصة هى إدراك ما يتيسر من المعنى الذى هو مجال تفوقنا على العجماوات - على ما يبدو - وا لله أعلم - وهذه النعمة غاية

فى الاتساع ، وهـى المجال الرئيسـى لنشـاط العقـل الواعـى ، لذلـك تقـل فيهـا المنافسة.

## موقع الطبيعة الإنسانية

بناء على ماسبق يمكن القول بأن طبيعة الحيوان أقرب إلى المبنى ، أو هـو أساسـا مبنى مسخر مع النبات والجماد - لخدمة الإنسان - ولا لـوم علـى الحيـوان إن اتصف بالجهل ، خصوصا جهل المعنـى ، ولكـن ذلـك منقصـة كبيرة فـى حـق الإنسان. ونحسب أن طبيعة الملائكة التى - لا نعرفها - أقرب إلى المعنـى منهـا إلى المبنى. أما الإنسان فيبدو أعقد تركيبا ، ووسطا جامعا بين المبنـى والمعنـى ، وفى موقع وسط بين طبيعة الحيوان وطبيعة الـمَلَك ، كمـا هـو ممثـل فـى شـكل (1). ولا يوجد حدود فاصلة واضحة بين الإنسان وكل من الملك والحيـوان ، لكن التداخلات هى السائدة ، والصورة الجامعة للأجناس الثلاث تبدو متداخلـة بدون وضوح الفواصل (Fuzzy) ، وتلك هـى الطبيعـة السـائدة لكـل جوانـب الحياة مـن حولنـا ، فـالحدود الفاصلـة بـين الأشـياء موهومـة ؛ بسـبب التحديـد الظاهر للمبانى.

يوجد بعض البشر يرى البعض من العلماء أنهـم فـى مستوى الملائكـة أو حتـى أرفع من الملائكة. ويوجد من البشر من تتجلى فيه حيوانياته حتـى تطغـى علـى إنسانياته. وفهم هذه التداخلات ينهى الكثير من الجدال السائد فى العديـد مـن

الأوساط الثقافية. والإنسان المُقصر – تجاه عقله – حين يضل فى فهم المعنى المتاح أو يجهله فقليلا يكون عذره ، وإلا فما فائدة العقل!

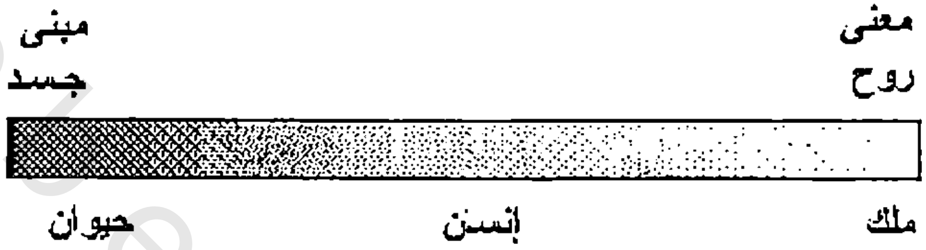


**شكل (1). تصور موقع الإنسان بين الملك والحيوان.**

## التمييز بالتقابل

نسلم بداية بأن الإحاطة الكاملة بشيء (أى شيء) أمر غير يسير ؛ بسبب شدة التشابكات والتداخلات بين الجلى والخفى من الأشياء. والجلى والخفى – هنا – مصطلحات نسبية ، فنقصد بالجلى ما نعرف عنه ما نحسبه كثيرا ، والخفى هو ما لا ندرك عنه إلا أقل القليل. فكلما دققنا النظر بعمق وجدنا أننا نكاد نحصر أنفسنا فيما يكاد يكون لاشيء ، فيتخفى ما نريد تجليته. فما نحن إلا أشياء (مخلوقات) عابرة فى هذه الدنيا ، لم نشهد نشأتها ولا سيطرة لنا على قوانينها. ولا نريد أن يعوقنا هذا العسر عن مداومة التفكر والتقصى لإدراك ما يتيسر من خلق الله ، وقد بشرنا الخلاق العليم – تباركت أسماؤه – قائلا: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾** – الآيات **5** ، **6** – سورة الشرح. وبذل الجهد العقلى واجب كبذل الجهد العضلى.

وفى سياق التفكر يلزم حد أدنى من التمييز ؛ فبدون هذا التمييز تبدو الأمور ممسوخة تائهة ، مختلطة المعانى. وبين النقائض (أو الأطراف) توجد أوسع مساحة للمعنى والتداخلات ، وبمعرفة النقيضين يبدأ التمييز وتبرز المعانى. فالتمييز يقابله الخلط ، والتمييز المتجرد وسيلة الأطهار من طلاب الحقيقة ، والخلط المتعمد وسيلة المضللين الذين يريدون التشويش والصيد فى الماء العكر.

العقل الذى يفتقد القدرة على التمييز يتعذر عليه التنظيم والتخطيط وحسن الحركة. ووسيلة التمييز هى العلم ، فالعقل يستطيع أن يميز فقط بقدر ما لدية من علم صحيح فى مجال التمييز ، أى المجالات التى يلم بأبعادها وحقائقها ، أما المجالات التى يجهلها فيتعذر عليه التمييز فيها ويحتاج إلى ناصح أمين يرشده بعلم. فمثلا المهندس المتمكن يحسن تمييز الماكينات من بعضها لكنه لا يميز سبب الصداع الذى فى رأسه ، لذلك يحتاج لطبيب يحسن التمييز فى هذا المجال. والطبيب يدرك بعض فوائد اللسان لكن لا يوجد فى علوم الطب ما يوضح الحكمة من خلق الإنسان بلسان واحد وليس أكثر ، رغم قدرة الخلاق على خلق أكثر من لسان للشخص الواحد. فالحكمة والمغزى معانى لا تدرك بالتشريح ولا بأجهزة المختبرات ، بل يلزم إيضاح من المصمم الخلاق العليم – سبحانه وتعالى عما يصفون. فالطبيب يستطيع أن يميز بوسائله إن كان الجسد مازال حيا أو أنه قد مات ، لكن لا ولن يوجد فى كل علوم الطب ما يوضح معنى الموت ولا ماذا بعد الموت.

وحين لا نعرف للشيء بداية ولا نهاية ، قد يكون من الأفضل أن نبدأ من حيث نقف ثم نتأمل ما حولنا. فما نعرفه نعتبره (مجازا) البداية المتاحة - وليست بالضرورة هي البداية الأسلم ، بل هذه البداية يسبقها أشياء ويتلوها أشياء. فالمحدود وراءه اللامحدود وبينهما أشباه ، والمعلوم يقابله المجهول وبينهما أشباه (المعلوم) ، وصل اللهم على نبيك (الأمى) المعصوم إذ يوجز ذلك الفهم ، فى الحديث المتفق عليه ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه ، فيقول : "*الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمها كثير من الناس*". فلنأخذ حذرنا فى تعاملنا مع المتشابهات قبل أن نتبين حالها بمزيد من التفكر والتدبر.

وفى سياق هذه المتقابلات نذكر أن الجسد يقابله روح ، والمادة يقابلها طاقة ، والمبنى يقابله معنى ، والوجود يقابله العدم ، والعلم يقابله الجهل ، وهذا التقابل لا يعنى التنافر دائما بل غالبا ما يعنى التكامل فى بعض الوجوه. وحين يتعذر الوزن أو القياس أو التحديد أو كفاية الإدراك ، ونضطر إلى الاختيار أو التمييز ، فيمكن أن نستخدم التقريب أو نبحث عن مدى الارتباط أو الاتصال بين الأشياء ؛ فنقول - مثلا - بأن المخ مرتبط بالجسد والعقل متصل بالروح والنفس تشمل الجميع ، رغم أننا لا ندرك حقيقة أى منهم. ونأمل أن يكون فى مثل هذا الأسلوب مخرجا للتغلب على صعوبات التحليل.

وبما أننا صنفنا الأمور إلى: (1) معلوم ، (2) متشابه، و(3) مجهول ، ونحسب أن نسبة المعلوم أقل النسب ، إذن فلنحذر التعميم ؛ حتى لا نتورط فى المجهول



openkandi.com

أو فى عقابيل المتشابه فتتبدد طاقتنا فى سبيل الخسران - والعياذ با لله. فالتعميم آفة تترعرع فى محيط الجهل والظلمات.

وشكل (2) يميز فى طبيعة التكوين البشرى أربعة مكونات رئيسية يجب أن تكون حاضرة فى الذهن عند وزن الأمور ومناقشة القضايا ؛ حتى لا يضل التفكير. وجدير بالذكر أن التقابل التمييزى فى مكونات الشكل لا يعنى التضاد أو التنافر ، بل إن التكامل هو الأساس ما دامت الروح فى الجسد ، والفصل بينهما مستحيل إلا بالموت ، عندئذ يتغير كل ما يتعلق بالكيان البشرى إثر الانتقال من طبيعة إلى طبيعة.

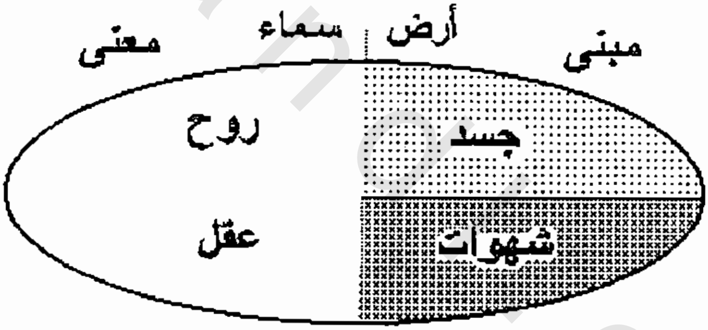


**شكل (2). تمييز المكونات البشرية.**

## تمييز المعنى

الكرة الأرضية بمكوناتها المادية محدودة ومحددة ، لكن المعانى الكامنة والتى تتولد فيها ، فى كل ثانية ، لا حدود لها. والضيق المادى الظاهر له حكمة تحت

العقل على التفكر فى كيفية الخروج من الضيق الظاهر إلى السعة الكامنة ، من ضيق المبنى إلى سعة المعنى ، ومن ضيق الركود إلى سعة النشاط. وكما أن الطعام المادى هو غذاء الجسد ووقود الشهوات فالمعانى هى غذاء العقل ، وتنوع غذاء العقل شرط لسلامته ونشاطه وحيويته. ومحدودية حجم الكرة الأرضية تحدد مبانيها وتجعل أساس فرص التوسع فيها تدويريا ونوعيا بقيادة العقل وبلا نهاية. وعند الوصول لهذا التصور ينفرج الضيق مسبحا بحمد الله ، الواسع العليم أحكم الحاكمين.

المبنى ظاهر يدرك بالحواس والتبياين فيه محدود بين الناس ، أما المعنى فباطن لا يدرك إلا بالبصيرة والتباين فيه شديد ، المبنى مجرد قشرة سطحية لكن المعنى جوهر عميق ، ولذلك فالمعنى أبعد نوالا من المبنى. وطبيعة المعنى تفاعلية ولذلك فهى غير واضحة بذاتها ولا محددة المعالم ولا يبدو لها أى حدود عقلية ملموسة ، بل واسعة بلا حدود (لا نهائية) ، تتفاعل وتتمدد على مختلف الأبعاد الفكرية ، ويمكن أن نلمس آثارها. أيضا المبنى أقرب إلى الجمود ، أما المعنى فأقرب إلى الطراوة أو اللين أو "السيوبة" (Fluidity) ، لذلك يسهل تغييره أو تحويره أو المخادعة فيه. وقديما قالوا: "المعنى فى بطن الشاعر" ، والمقصود هو المعنى الذى صيغت العبارة للتلميح إليه ، لكن العبارة بعد أن خرج مبناها من بطن صاحبها لم تعد معانيها ملكا له ، ولا يمكن أن تقصر على ما كان يقصد. فالمعانى تنمو وتتزاوج وتتوالد وتتكاثر. وكم من مُعبر مات وما زالت عباراته تُخصب ويولد لها معان لم تكن تخطر له على بال. ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ**



obeikandl.com

مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ – الآيات 24 و 25 – سورة إبراهيم (عليه السلام). وفى محاولة الفهم وتدبر المعنى ، قد يخطر بالبال أن ما يتفرع فى السماء هو معانى الكلم الطيب ، رغم ثبات المبنى فالمعنى الطيب يتشعب فى سماء الخير ، وا لله تعالى أعلم.

وجدير بالذكر أن الموت أو الفناء لأى شىء يبدأ بهدم المبنى ؛ لأن المبنى يتصف بمحدودية العمر أيضا ، لذلك فالمعنى أبقى وأبلغ وأرقى وجودا من المبنى. والمعانى كباقى الأشياء أو هى شطر الأشياء وفيها الطيب وفيها غير ذلك ، وفى كل الحالات هى الشطر الحاكم أو الرئيس.

وقد يكون ظاهر المبنى خادعا ، أو ليس معبرا بالقدر الكافى عن حقيقة الباطن (المعنى) ، وكم من العباقرة لم ينصفهم مظهرهم فى عيون الناس (أى ظاهر مبناهم) وبعد رحيلهم يظل عطاؤهم المعنوى فياضا متكاثرا ، هذا باستثناء من اصطفاهم العليم الحكيم فأنعم عليهم بحسن الظاهر وروعة الباطن. ولا نعرف قاعدة تحدد أيهما يأتى أولا المبنى أم المعنى ؛ أى أيهما السبب وأيهما النتيجة. فبوجود المبنى ينشأ حوله المعنى لمن يتفكر. والمعنى يمكن أن يترجم (يتجسد) فى ذهن المصمم أو المبدع إلى مبنى قابل للظهور أو التنفيذ.

وكثيرا ما يعترف الإنسان بعدم قدرته عن التعبير (إخراج) عن المعانى التى يشعر بها ، ربما لعجز الكلمات (المبنى) عن حمل المعنى وهذه حاله معروفة يمر بها

الكثيرون ، فعندئذ ترى الجوارح تعبر بطريقتها : كاحمرار الوجه ، ودمع العين ، وجفاف الحلق ، وقشعريرة الجلد ، وزيادة ضربات القلب ، كل ذلك تعبيرات عن معان محبوسة فى الباطن ، والسبب غالبا ما يكون بسبب الحياء أو الكتم أوضعف لغة الإنسان (البلاغة) ، أو بسبب فقر بعض اللغات وقصورها عن استيعاب بعض المعانى ، وهنا نشير إلى الشرف الذى نالته اللغة العربية حين حُملت بمعانى القرآن الكريم فى حدود قدرات العقل البشرى.

والحقيقة - كمعنى - أقرب إلى الباطن منها إلى الظاهر. فالمعنى لا يدرك بالحواس ولا يتحدد بالقياس ، والمساحات التى تدرك من المعنى تدرك بحسن تشغيل ما تلتقطه الحواس ، بالتفكر والتدبر والاعتبار ، أى بالعقل. فيمكن - مثلا - أن يُشاك الإنسان ويحس بالشكة وهو نائم فينتفض ، لكن معنى الشكة وحقيقتها لا يدرك إلا بعد تشغيل العقل. ممكن أن تلمح الدمعة فى إحدى العيون ، لكن ماذا تعنى تلك الدمعة؟ فرح أم حزن أم كذب كدموع التماسيح! لا بد من تشغيل العقل قبل إدراك ما يتيسر من المعنى ؛ لأن المعنى عديد الاحتمالات والذى يصفيها هو تشغيل العقل. لذلك فالمعارف أكثر تعلقا بالظاهر أما الإدراك فيميل ناحية الباطن. والفصل بين الظاهر والباطن ليس مطلوبا بل قد يضر الحقيقة لأنها كلية والتجزئ ووضع الفواصل يتعارض مع طبيعتها ، لكن المطلوب هو التمييز فى سبيل الفهم ، مع حفظ صفة التكامل.

ولا حاجة للصراع فى نظر الحكماء إلا حين يلزم مقاومة الحماقات ؛ لأن السعة المعنوية بلا حدود. والاختلاف بين العلماء يكون بسبب نوعية المعنى فى نظر كل منهم ، وهذا التنوع طبيعى ويثرى الرؤية والفكر للجميع. ولا أحسب أن صراعا قد نشب – فى التاريخ – إلا بسبب ضيق أفق أحد أو بعض أو كل أطراف الصراع. والحكمة – التى تعتبر من خير الأشياء فى الوجود – هى ذات طبيعة معنوية بحتة ، وهى أرقى وأدق ما يدير الأمور المادية ببساطة معجزة وبأدنى تكلفة ، ﴿**يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾ الآية 269 – سورة البقرة. فالحكمة خير ومفتاح الخير ، وهى أمر معنوى ولذلك تجد أحكم الحاكمين ينبه أصحاب العقول (الألباب) فى الآية الكريمة إلى قيمة الحكمة ؛ لأن العقول هى التى تتعامل فى المعانى. والحكمة هى ضالة المؤمن ، والكافر قد ضل عنها وهى لا تساوى دينارا فى نظره المادى الأعمى.

والخلط وعدم القدرة على تمييز المعنى من المبنى قديم ، قدم أبينا آدم عليه السلام حين انحصر فكر إبليس فى المبنى و ﴿**قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ الآية 12 – سورة الأعراف. لم يفطن إبليس إلى قيمة المعنى ، وهذا النوع من الجهل لا نصنفه كخطر فقط ، بل نراه مهلكا. وللأسف فكل أتباع إبليس غرقى فى نفس الخلط (المعنوى). وكل القيم المعنوية لا نجد لها بين أتباع إبليس وزنا يذكر ، فكل تركيزهم على المبنى المادى ، الطين والتراب وما

يشتق منهما. وكثيرا ما نسمع من بعضهم مداهنات تتمسح بالقيم والأخلاق والضمير ، ولكن حينما يأتى المحك يرى السذج المخدوعون عجبا ويعبرون عن الدهشة والتناقض بين القول والفعل ، ولكن الكيس المدقق يبتسم وثوقا فى فكره ويحمد الله على حسن إدراكه وسلامة بصيرته ، ورضا بأن ما يتوقعه بالعقل يحدث حقيقة ، وأنه لا يخدع ولا يفاجأ ، وسنن الله لا تتبدل ؛ ولأن المعنى - المنير - كشاف للحقيقة ، أما المبنى - المظلم - فيحجبها.

وحين تتلاشى مادية الأشياء تتجلى معانيها التى كانت محجوبة بظلام المادة ، والأشياء اللامادية تبلغ بخفتها وشفافيتها سماوات المعانى . فالصبر - مثلا - كمعنى بحت لا نعرف له كيانا ماديا ولكنه ذو قيمة معنوية تقهر كل المبانى المادية ، بل إنه لذو سعة تبتلع الدنيا بأسرها وترنو إلى الآخرة. الصبر دليل على مدى الثقة فى حكمة الله وقدرته ، والصبر سياج الثبات على الحق. وفى المقابل تجد السلطة - كمثال مغاير - لها وزن مادى ثقيل ووزن معنوى محدود ، فعند "فلان" الخواف يكون لها رهبة ؛ إحساسا بثقل تأثيرها الظاهرى فى المادة ، أما عند "علان" صاحب القيم المعنوية فلا يضع السلطة فى أكبر من حجمها وما تعنى.

وما العبر إلا خلاصات معنوية مركزة ، تظهر بعد أن تخمد العواصف المادية ويحصحص الحق ، ليتبين للعاقل أن أغلب الأخطاء البشرية سببها سوء التقدير المعنوى ، ولكن هذه العبر لا تصلح للتعليب والترويج فى عصر الطغيان المادى.

بين أى نقيضين تبدو أوسع مساحة للمعانى ، وكلما زاد التجانس أو التشابه أو التكرار والنمطية كلما ذابت المعانى وخمدت ديناميكيتها ، لكن التنوع والاختلاف يولدها. فالهواء الساكن فى الغرفة له مبنى محدد ومعنى محدود ، أما النسمة فليس مبناها محددا ولا معناها محدودا ، والإعصار أشد من كليهما مبنى ومعنى. فحركة الشيء - بسبب التفاوت فى المستويات - تكسبه المزيد من المعانى ؛ فماء البحيرة له معنى ، ولكن حركة ماء النهر معناها أعمق. والمعنى يمكن أن يتولد بين المتناقضات (أو المتقابلات) المعنوية ويبرزها ، فالكذب رغم قبحه فهو الذى يبرز معنى الصدق ، والشر رغم أخطاره فهو الذى يبرز معنى الخير وقيمته. والوجود معنى قبل أن يكون مبنى ، يا أولى الألباب.

## قراءة المعانى الكونية

تمييز المعنى من المبنى ضرورة لفهم ما يتيسر من معنى الوجود ، وفتح بعض المغاليق ، ومعرفة شيء عن عالم الملكوت ، وهو حجر الزاوية فى إدراك ما يتيسر عن الحقائق والحكم والغايات. هذا التمييز ضرورى لتمكين العقل من التخفف من أثقال الدنايا وتخطى الحواجز المظلمة والتحليق فى الآفاق العُلى حيث توجد السعادة الحقيقية ، وإلى هناك يدعى الإنسان. ومن الملفت للنظر أن أول كلمة نزلت من القرآن الكريم كانت ﴿ اقرأ ﴾ وهى دعوة من العليم الحكيم للرسول الأمى الكريم - صلى الله عليه وسلم - للقراءة ، رغم معلومية أنه - عليه الصلاة والسلام - أمى ، لم يسبق له تعلم القراءة المعتادة ولا الكتابة

، فهل يمكن فهم أن الدعوة كانت لقراءة (تدبر) معانى الخلق! ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ....﴾ مطلع سورة العلق.

الآيات الخمس فى مطلع السورة الكريمة – بل فى صدر ما نزل من القرآن – تشير كلها إلى أن مصدر العلم والقراءة والتعلم والخلق والكرم كله منسوب إلى الله ومتصل به ، جل شأنه. وفى الآيات إشارة إلى التعليم بالقلم وأهميته ، بل وسميت إحدى سور القرآن باسم القلم إبرازا لشأنه ، وفى نفس الوقت يُستشف من الآيات أن التعليم ليس كله بالقلم بل هناك تعليم بالإشارة وبالوحى وبالإلهام وما شابه ذلك. والقراءة لا تقتصر على المتعلم فقط ، ومع التأكيد على أهمية التعليم ، نوضح أن كل ذى عقل يستطيع بالتأمل والتفكر أن يقرأ فى كون الله ويستخلص الفوائد والعبر إن صفا ذهنه وركز انتباهة فيما يدور من حوله – بدقة وإحكام وإبداع يسبح خالقه – والمؤمن مطالب بذلك ، وهو أولى الناس به.

ونعود للمعنى والمبنى فنجد أن غاية ما نستطيع قوله بالنسبة لبناء آيات الذكر الحكيم أنه يمثل القمة فى إحكام البناء اللغوى ، أما بالنسبة لمعانى الآيات فهى تفوق قدرة الوصف ؛ لأنها لا تحد بحدود ، يكفى أنها فى حد ذاتها آيات ، ونتذكر قول أمير المؤمنين وعمدة البلاغة على بن أبى طالب – رضى الله عنه : "إن القرآن حمال أوجه".

والحق ما شهدت به الأعداء ، فها هو عتبة بن ربيعة أحد عتاولة الشرك يحاول وصف معانى القرآن – حسب رواية ابن اسحاق – فيقول : "إنى سمعت قولا فوا لله ما سمعت مثله قط ، وا لله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة". ولا نترك هذه النقطة قبل أن نتأمل وقع النص القرآنى وهو يخرج من فم وقلب رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – على قلب رجل لم يؤمن! فيتبين أن بناء النص رغم روعته فخروجه من قلب النبى – صلى ا لله عليه وسلم – أخرج من معانيه ما اقتحم قلب غير المؤمن ، وذلك يؤكد علاقة المعانى بالقلوب.

## الرمز

الرمز صورة بنائية تحمل معنى (أو معانى) . والرمز يمثل المبنى تمثيلا نسبيا (غير كامل) وأحيانا غير سليم ، فالراية (العلم) كانت قديما رمزا لجيش واليوم صارت رمزا لوطن ، لكن من أى جانب تمثل الوطن؟ من ناحية الحدود ، الكرامة ، القوة ، القومية ، الأخلاق ، الاقتصاد ، البسالة ، الإمكانات ، الجغرافيا ، التاريخ....! لو قلنا الراية تمثل كل ذلك وما وراءه ، فهل العقل حين يستقبل الرمز – فى عملية الإدخال (Input) الحسى – هل يستطيع أن يستقبل معه كل ذلك؟ والجواب بالنفى. إذن الرمز قاسم مشترك (مختصر) بين المبنى والمعنى ، بين العقل والحواس والجوارح. والعقل يتعامل (يتفاعل) مع الحقائق والمعانى عبر الرموز وما تعنى عنده ، وبعبارة أخرى الخيال يتفاعل مع



obeikandi.com

الرمز (أو الصورة) وليس مع الحقيقة ، والرموز عموما تخضع لما فى ذاكرة العقل وتتفاعل مع الخيال بغض النظر عن الحقيقة ، وهذا منزلق خطير للخطأ ويستلزم الحذر. أما الجوارح والحواس فتتعامل مع المبانى والرموز ، فالرموز فى الغالب تأخذ صورة المبنى. والحواس تستشعر ما يتيسر لها عن الشيء ، ولكن العقل هو الذى يقرر ما هذا الشيء بناء على خلفيته.

والعقل حين يعبر عن نفسه أو رغباته وآماله وهواجسه فإنه يعبر عنها بالأشكال والصور والرموز التى تولدت عن ثقافته وخبرته وتجربته هو. ويمكن استشعار بعض هذا التنوع المعنوى لدى العقول - حول الرمز أو المبنى- بأن نسأل مثلا : بماذا يُذكرك الجبل؟ عندئذ يمكن أن نتلقى الإجابات التالية - كأمثلة - من عدة أفراد مستقلين:

- الجبل يذكرنى بالسفاح الذى كان يختبىء فيه.
- الجبل يذكرنى بمنجم معدنى.
- الجبل يذكرنى برغبة الصعود للقمة.
- الجبل يذكرنى بالصمود.
- الجبل يذكرنى بخطر السقوط من فوقه.
- الجبل يذكرنى بخالقه.
- الجبل يذكرنى بالمتفجرات التى تكفى لنسفه.
- ....................



obeikandi.com

وهكذا... الجبل عند كل واحد من هؤلاء له معنى ووقع مختلف ، وكذلك يختلف تأثيره على الفكر والخيال. وللرمز مجال (Field) تأثيرى يشتد بوفرة معلومات العقل عن الرمز أو حوله. والمعنى الخاص – للرمز – عند كل فرد هو الذى يستخدم فى تفسير الأحلام وأضغاثها. العقل يتعامل مع المعانى التى تحملها الرموز ، من واقع خبرته وتجربته هو. إذن دخول البيانات الخاصة بحقيقة الشيء عن طريق الرمز – إلى العقل – فيها نسبة فقد أو تشويه (أو تصرف) هائلة فى المعانى ؛ بسبب التهذيب أو الترشيح ، كما هو ممثل فى شكل (3).

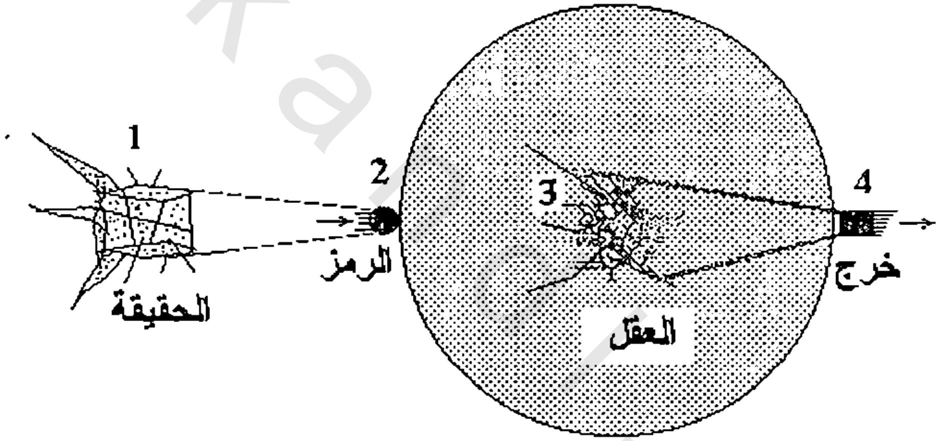


**شكل (3). تمثيل دخل وخرج وتشغيل العقل.**

وحين يريد العقل أن يعبر عن شيء ما (معنوى) بداخله – أثناء عملية الإخراج Output – هل يستطيع أن يعبر بالرموز المتاحة لديه عن كل ما يجيش بداخله بخصوص هذا الشيء؟ الجواب بالنفى. إذن يوجد فقد وتشويه هائلان فى

عمليتى دخول المعلومات للعقل وخروجها منه ، هذا فضلا عن أخطاء تشغيل المعلومات (الرمزية) بالعقل وتفاعلها النوعى مع الخيال. وكما هو ممثل فى شكل (3) ، حقيقة الشيء تكون متشعبة على الصورة (1) لكن ما يدرك منها يكون مختصرا على هيئة رمز الإدخال المهذب (2) ، وناتج التشغيل والتفاعل مع الخيال ومحتويات الذاكرة يأخذ الصورة (3) ، والخرج الناتج بخصوص الموضوع كله يكون شديد التهذيب والإيجاز فى حدود إمكانية التعبير (4).

وهنا يتبين أن عمليتى قولبة الدخل والخرج (أى حصره فى قوالب أو رموز معينة) تولدان النسبة العظمى من الأخطاء الفكرية( فى الدخل والخرج) ، ويبقى فوق ذلك أخطاء تفاعل الرموز مع الخيال. بمعنى آخر ، إننا نتجاهل (أو نجهل) حقيقة المبانى وحقيقة المعانى ، فتتحول لمسألة إلى رموز شبه مجردة ، والحيلة قليلة ؛ بسبب محدودية كل من علمنا وحجم العقل. ويلاحظ أن عملية تحويل المبنى إلى معنى أو الحقيقة إلى رمز هى عملية غير نعكاسية (Irreversible) ؛ نظرا لوجود عمليات حذف وإضافة (تشويه أو تهذيب) فى الإدخال للعقل والإخراج منه ، فالعقل له تصرف معنوى مرتبط بتركيبه وخيالاته.

وهنا يمكن أن نفسر سهولة المعالجة الميكانيكية (الآلية) للمسائل المقولبة ، أى التى تحولت إلى رموز مجردة أو نماذج رياضية (مبانى) ، كما هو الحال فى مجال بحوث العمليات ، حيث يمكن بواسطة الحاسب الآلى معالجة المعادلات الرياضية



obeikandl.com

- بمنتهى الدقة والسرعة - وفقا لبرنامج محدد ثم إخراج النتائج ، ولكن يبقى الخطأ السابق ممثلا فى قولبة معانى المدخلات ، والخطأ اللاحق فى اشتقاق (أو ترجمة) معانى المخرجات. فلا يوجد اختلاف حول حل معادلة أو مجموعة معادلات ؛ لكونها مبنى ، لكن الاختلاف - والخطأ - يتركز فى محاولات حصر الحقائق فى رموز ثم ترجمة النتائج الرمزية إلى معان.

وهنا نشير إلى أن أسلوب معالجة العلوم الإنسانية يجب أن يختلف عن أسلوب معالجة علوم الجمادات ؛ نظرا لزيادة وتشابك المعانى - كثيرا - فى الأولى عن الثانية. كذلك يجب الانتباه إلى أن العلاقات الحقيقية - المستقرة الموثوقة - والنواميس الكونية لا تظهر بدون وضع المعانى فى الاعتبار ، والمختبرات وحدها - رغم أهميتها فى كشف المبانى - لا تكفى لكشف الحقائق الأصيلة ذات المعانى.

وكذلك نذكّر بأن الترجمة التبادلية بين مبنى الشىء ومعناه فى المحاولات الاستنتاجية مع محاولة تغييب أو تجاهل الخالق العليم الذى خلق كل شىء - كما يفعل الملاحدة - هو فى الحقيقة أصل الضلال الذى يتفرع منه كل الضلالات البشرية ويخل بالقواعد والموازين ، خصوصا فى العلوم الإنسانية. وما يتمسحون به من ضمير بدون إيمان هو كمحكمة بغير قضاة ، فما جدوى مبناها وما معناها؟!

## ترجمة الرمز

بالإضافة إلى مثال الجبل السابق ذكره ؛ هب أننا نسأل عن معنى أحد الرموز أو المباني المحددة (أى عـن ترجمته المعنوية) وليكن السؤال : ما معنى أن يكون متوسط درجة حرارة الجو 30 درجة مئوية نهارا؟ فمن الممكن أن نسمع من مجموعة أفراد مختلفين الإجابات المتباينة التالية :

1- ممتاز إنها تقارب درجة حرارة الجسم ولا نحتاج إلى تدفئة ولا تبريد ويمكن التخفف من الملابس ، ولن نحتاج لتسخين مياه وسنوفر الطاقة.

2- إنها مرهقة خصوصا مع وجود نسبة الرطوبة المرتفعة فى بلدنا.

3- عند هذه الدرجة الدافئة تقل فرصة تعرضى لنزلات البرد التى تتكرر عندى كثيرا.

4- معناها أننى سأتصبب عرقا أثناء عملى الذى يصاحبه مجهود عضلى.

5- لا بأس بها.

6- هذه الدرجة تشعرنى بالخمول وتقلل إنتاجى.

7- إنها ستساعد على سرعة نضوج محصول هذا الموسم.

8- ...............

وهكذا نجد معانى عديدة ومتباينة لرمز بالغ التحديد والوضوح ومقيس بمنتهى الدقة. وسبب الاختلاف مرجعه إلى توعية المستقبل : من يستقبل الرمز (المبنى) ويترجم معناه، وعلى أى الحالات فمعالجة مثل هذه المسألة أقرب للتحديد والوضوح من غيرها ؛ لأن الآراء ممكن أن تتلخص فى ثلاثة اتجاهات لا غير :

- اتجاه يحبذ زيادة درجة الحرارة عن المستوى المذكور.
- اتجاه يفضل البقاء عند هذا المستوى.
- اتجاه يود لو تنخفض درجة الحرارة عن المستوى المذكور.

كل ذلك بفرض حسن النوايا وسلامة القصد ، أما عندما تفسد المقاصد فرغم شدة وضوح المقاييس ترى النفوس المريضة لا يرضيها المقياس الواضح. نعم الأشرار وأصحاب الأهواء والطماعون والجهال يعترضون ويتحايلون حتى على المقاييس المادية التى يصنعونها بأيديهم ، وقد كشفهم العليم الخبير وتوعدهم قائلا: ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ - مطلع سورة المطففين.

ذلك كان عن معنى المبنى ، ومرحبا بجهد العقل ودوره المطلوب فى المعالجة المعيارية فىهذا المجال كلما أمكن ، لكن ماذا عن مدلول المعنى ، إنه عالم الاختلاف الذى يحار فيه العقل المغرور ، عالم لا يوجد له مقياس متفق عليه ولا قياس مرضى عنه. بماذا نقيس العالَم؟ وماذا سنقيس فيه؟ وكيف نقيسه؟ ولمن نقيسه؟ ومن سيترجم المقياس؟

العدل - كمثال - هو معنى وتطبيقه بالفكر العقلى التقليدى يحتاج أولا إلى توضيح معناه. هذا هو المجال الذى لم يتوصل العقلانيون إلى حل لمعضلته ، ولا يمكن إدخاله المختبر التجريبى أو صياغته فى معادلات رياضية ، ولن يتوصلوا

لمعالجات صحيحة له حتى يتجردوا من أهواء أنفسهم ومن غرورهم ، عندئذ سيجدون الحل جاهزا بين أيديهم لكنهم كانوا يجهلونه ويرفضونه بسبب جهلهم. لقد حقق العقل البشرى تطورات علمية مشهودة فى مبانى الأشياء – بالأسلوب التجريبى – دون أن يطور ما يواكبها من المعانى ، وبذلك تم تدعيم الشهوات على حساب القيم والأخلاقيات ، وتدعيم الجنون المادى على حساب العقل المعنوى. وهذا المأزق لا يمكن الخروج منه بدون جهود عقلية جبارة ومستقيمة.

## المعايير والحدود

فى إطار هذا الفصل ، قد يكون من المفيد أن نتفق على قاعدة نميز بها المعنى عن المبنى ؛ لأن التمييز – كما سبق أن ذكرنا – من الضروريات الأساسية للفهم والاستيعاب وحسن التصرف. وكاقتراح نقول إن الصفة أوالبعد المتفق على مقياس(معيار) دقيق ومحدد له نعتبره ماديا ، مثل درجة الحرارة والكتلة والمسافه وعدد أحرف أو كلمات المقال ولون الجدار وما شابه ذلك. ويلاحظ أن درجة الحرارة فى ذاتها ليست مادة ولكن لها تأثير وعلاقات مباشرة مع المادة وشكلها وحجمها ، إذن هى مقياس (أو بعد) مادى ، يعبر عن حال المادة. بمعنى أنه مع المبانى نستخدم المقاييس والمعايير التى اتفق عليها عقلك وعقلى. وما يتعذر الاتفاق على مقياس (أو معيار) له نعتبره معنويا ، مثل : الإخلاص ، الإيمان ، الصبر ، الفرح ، الغضب ، الرضا .... إلخ. وجدير بالذكر أن عدم



obeikandl.com

الاتفاق على مقياس أو معيار لا يعنى نفى وجود البعد ولا المعيار ولكن ينفى وجود الاتفاق عليه وذلك يدخلنا فى عالم النسبية-النوعية التى لا يستقر لها قرار ، وهذا هو محور القضية. إذن نحتاج إلى بديل للمعايير المتعذرة ، والبديل المتاح هو حدود التمييز. عندما يتعذر وجود مقياس أو معيار فتفاديا للخلاف نستخدم أسلوب التحديد ، أى جعل أو تصور حد بين الشيئين أو بين الأشياء. فتجد بين الدول حدودا على اليابسة ، وحدودا فى الماء ، وحدودا تصورية حتى فى الجو تعين ما يسمى بالمجال الجوى. وتلك حدود لا يجوز تجاوزها إلا بشروط وترتيبات لمقاومة طغيان بعضها على بعض.

أيضا يوجد للمعانى حدود ، لكنها لا تتحدد فى المختبر ، ولا يدركها العقل بذاته لأنها فوق طاقته وقدراته. يوجد حد يفصل بين الظلم والعدل ، بين الخير والشر ، بين الطيب والخبيث ، بين الحلال والحرام. حدود حددها رب العالمين العليم أحكم الحاكمين – سبحانه وتعالى – قبل خلق عقلى وعقلك ، وقبل خلق جدنا آدم عليه السلام. إنك قد ترى أن عينك أجمل أو أغلى من عينى ، وقد يبدو لى العكس ، ولكن الحكم العدل يقول : **العين بالعين** ، فهل يوجد في ذلك شبهة تحيز! هل يوجد أدنى تعارض مع العقل! فلماذا إذن يرفض بعض العلمانيين ذلك النوع من العدل؟

السعى فى الحياة مطلب عقلى فضلا عن كونه وظيفة إيمانية ، ولكن كيف يسعى الإنسان؟ كيف يعرف الطريق المستقيم من المعوج؟ الصراط المستقيم

ليس مادة تقاس بل معنى لا يتحدد فى المختبرات ، ولا يرسم على اللوحات ، وليس مجالا للتجريب ، لكنه ضالة اللبيب صاحب العقل المفتوح الذى لا يرفض النور ، فليس من العقل إغلاق العقل ، أو أن يتكبر العقل على هدى خالقه.

التفكر والتدبر يساعدنا فى استلهام الهدى والائتناس بنوره فى كشف المعنى ، وذلك حين نتجرد من شهواتنا وأهوائنا ونسأل أنفسنا - مثلا - ما معنى صنع القنابل الذرية وأسلحة التدمير؟! والجواب : إنها حماقات رغم ما فيها من تقنيات مادية متطورة ، نعم القوة مطلوبة لحماية الحق كمعنى سام ، لكن بدون تدمير حياة الأبرياء.

ما معنى بناء قصر به 366 غرفة نوم من أجل شخص - لديه العديد من القصور الأخرى - والموت يطلبه؟! وما معنى زخرفة القصور والمنتجعات فى بلاد يجتاح الفقر ربوعها ويتسكع الجهل بين الملايين من أهلها؟! نعم توفير أسباب الراحة مباح ولكن ليس إلى حدود السفه! فما نشرته الصحف يوم 7-9-1996 بخصوص الزفاف الأسطورى لابنة حاكم إحدى شظايا الدويلات ينكمش بجانبه معنى الاسراف ، ويلزم البحث عن ألفاظ تناسب وصف الحال ، فأحد قصور السلطان به 1778 غرفة ، وسمعنا عن الورد المصنوع من الذهب والألماس!

يلزم وضوح المعانى ومعالمها بلا أهواء.

## تضليل المعانى

شاع بين الناس ما قيل عنه "التلاعب بالألفاظ" ، وهذا التلاعب فى الغالب يحدث عن عمد وتوظيف لغموض العبارات (Fuzziness) ؛ بغرض التضليل لظاهر مصلحة البعض ، خصوصا فى عصرنا الحاضر ، عصر الحملات المغرضة المنظمة. ومن المعروف أنه بمرور الزمن وتباين الظروف والمواضع والملابسات ، تكتسب الألفاظ معانى متنوعة. وقد نشبت معارك فكرية بسبب الاختلاف على تفسير ما ، أو تأويل أو معنى أو ترجمة لفظ معين ، وهنا يجوز افتراض حسن النية والتماس الأعذار - بدون التسليم بالخطأ إن اتضح - شريطة ألا تتجاوز الأمور حدود المعقول.

وحتى مع وضوح المعنى المجرد ، تظل خاصية النسبية-النوعية سائدة ومسيطرة على المعنى ، فمثلا لو قلنا إن فلانا طويل القامة ، يبقى التساؤل ، طويل بالنسبة لمن؟ وقد يقال فى سياق المقارنة بين اثنين ممن عرف عنهم الكذب : لكن فلانا أصدق من فلان! أو بين اثنين من المرضى : إن فلانا أصح من فلان. وهكذا يجرى الحديث عن صدق الكاذبين ، وعن صحة المرضى ، ونجد فى مختلف أنحاء المعمورة ما يسمى بوزارة الصحة - كل عملها مرتبط بالمرض وغارق فيه - والعقول تتقبل التسمية بمنتهى البساطة ؛ لأن معظم العقول تفضل زينة الباطل على مرارة الحقيقة. ورحم الله أبا الحسن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - صاحب العبارة الشهيرة "هذا حق يراد به باطل".

ومع مرور الزمن تستجد مصطلحات لتعبر عما يستجد من معان. فبرز ما يسمى بغسل الأموال القذرة! أى تلك التى تجمع من الأنشطة الخبيثة - كالتعامل فى المخدرات - تتسلل للقنوات الرسمية متخفية وتتحرك بعد ذلك فى ثوب جديد خادع. ولا خلاف على وجوب محاربة المخدرات ، ولكن أدعياء الفضيلة والعدالة لماذا يكيلون بعدة مكاييل! هل أموال التعامل فى الخمور والقمار والبغاء نظيفة ولا تحتاج لغسيل؟! وهل الثروات المنهوبة من الشعوب المقهورة والمغلوبة على أمرها أموال طاهرة وزكية؟!

حتى فى الدول التى ثارت على المَلَكية وتخلصت منها منذ عشرات السنين عادت تستعمل مصطلح "الملكية" مَلطخا بالشهوات والتسفل دون أن تشعر ، فدخلت فيما يسمى مسابقات ملكات الجمال! وملكة جمال الشاطىء! وملك الكلاب! وأجمل قط! وملك الخمر! ترى ماهى المعانى التى وراء هذه الأنشطة وأين العقول! وإلى أين تسير الحضارة المزعومة؟

## الإرسال والاستقبال

طيلة وقت يقظة الإنسان وعقله يستقبل أكثر كثيرا مما يرسل ، يستقبل فيضا لا ينقطع ويرسل القليل المتقطع قولا أو فعلا. وللإرسال الواحد يتنوع الأثر فى نفوس المستقبلين ؛ لأن إدراك المعنى هو نوع من التذوق يرتبط بحس خفى ، فكما هو معروف أن للزهرة - كمثال محايد - جسما وألوانا ورائحة ، ولا

اختلاف حول أبعاد جسم الزهرة نظـرا لقابليتـه للقيـاس المطلـق بمنتهـى الدقـة ، لكن يبدأ الاختلاف الواضح فى تذوق اللون والرائحة ، وتقويم القيمة. كذلك الجملـة التعبيريـة أو الخبر أو المعلومـة تسر إنسانا (مستقبل) ولا تسر آخـر ، ومعانى الآية القرآنية - رغم حيادها وسمو معانيها ودقة صياغتهـا - قـد تهـدى المؤمن وتزيد إيمانه ، ونفس الآية تقف فى حلق الضال الكافر فيزداد بها ضـلالا ، ففى حالة الإرسال المحايد يتوجه المعنى المتولد تبعا لنوعية عقل المستقبل. وكم سمعنا من يعتذر (صادقا) ويقول : إننى لم أقصد ما فهمته أنت من كلامى!

فى الماضى كان الإنسان يستقبل من محيطه فقط وكانت أمامه الفرصـة ليلتقـط أنفاسه ويتأمل ويقلب المعانى ويراجعهـا ، لكـن فـى الوقـت الحـاضر سـاهمت التقنيات المادية الحديثة فى دعـم وسـائل الإرسـال ومضاعفتـه ملايـين المـرات ، وبالتالى تضاعفت خطورته فى التأثير على العقول ؛ لأن الإنسان أصبح يسـتقبل من غير بيئته وأصبح يشعر بالغربة حتى وهوفى بيته ، وفى ذلـك خطـورة علـى الحالة النفسية والبيولوجية للإنسان ما لم يتنبه العقل ويميز معانى هذا القـادم مـن مختلف الاتجاهات بأعاصير معنوية تعصف به ولا تمكنه من تأمل ووزن ومراجعـة ما يستقبل.

وكما سبق أن وضحنا فنوعية المعنى تتأثر كثيرا بظـروف المستقبِل فضـلا عمـا يعنيه المرسل ، ولذلك فالمرسِلون أصبحوا يركزون كثـيرا علـى تشـكيل العقـول المستقبلة وإعدادها مبكرا ، بحيث يضمنون وصول أكـبر قـدر مـن المعنـى الـذى

يريدون توصيله فيصبح فهمها للمعانى كما يريدون ، أى أنهم يتصارعون على احتلال العقل المستقبِل وزرعه بالرموز التى تستقبل إرسالهم بالتسليم ، وبمعنى آخر فهذا العقل المسكين أصبح **فيه شركاء متشاكسون!** كل يريد أن يحتل أكبر مساحة ونشر أكبر عدد من الرموز ؛ لتكون له السيطرة! وتراكم المعانى المرسلة يرجى منه تحقيق هدف ، كدفع المستقبل فى اتجاه معين ، لكن كثرة الشركاء المتشاكسين جعلت الاتجاهات شتى والعقول فى حيرة ، إلى أين المسير أو المصير؟!

وسرعة الاستجابة للإرسال غالبا ما تدل على النشاط العاطفى والحساسية للمبنى ، أو على تقارب بين فكر (ورموز) المرسل والمستقبل ، أو الثقة فى المرسل أو حبه. أما تأخر الاستجابة ففى الغالب يدل على التعقل ومحاولة وزن الأمور والتماس المعنى وترجمته بالرموز الخاصة ، أو على الحذر من المرسل أو كراهيته والتشكك فيما يرسل.

الإعجاب بالبساطة يدل على قدرة تذوق معنوى فائقة تعوض البساطة الظاهرية للمبنى بروعة ما تم إدراكه من معان كامنة. وحين يكون المستقبل فائق البصيرة يستطيع الإحاطة شبه الكاملة بمعنى المبنى الذى يقصده المرسل ولو كان بسيط المبنى ، بل ويبدع فوق ذلك فيحيط بالمعانى التى ليس (أو لم يظهر) لها مبنى بعد ، ولا يتوفر ذلك إلا للواحد الأحد – جل شأنه – مقلب القلوب ، السميع الذى يسمع دبيب النمل فى الليلة الظلماء ، البصير الذى يرى فى النور

وفى غير النور ، العليم بمكنون الصدور. وقد أشار سبحانه وتعالى إلى خلو المبانى - أحيانا - من معانيها الحقيقية وهذا لون من كذب الإرسال وأمثلة ذلك: ﴿... يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الآية 8 - سورة التوبة ، ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ -الآية 30 - سورة التوبة ، ﴿... كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ...﴾ - الآية 100 - سورة المؤمنون.

والمطلوب من المستقبِل هو إتاحة الفرصة للعقل لكى يؤدى دوره الحيوى وواجبه الفطرى فى إدارة شئون الإنسان بعد إدراك المعانى وليس فقط المبانى. وأروع وأنقى إرسال - يرقى بالعقل وبكل الإنسان - هو الإرسال المحايد النزيه القادم من عند غير ذى مصلحة فى إرساله. وينساب المعنى بيسر بين المرسل والمستقبل حين يصفو الطريق بين القلوب ويخلو من العوائق ، وهنا نتذكر قول الحسن البصرى - رضوان الله عليه - حين سمع خطيبا فصيحا لكن كلامه لا يدخل القلب فقال له : "إن بقلبى لشرا أو بقلبك" ، وهو بذلك يفسر سبب عدم وصول الكلام لقلب السامع؛ لأن كلام الخطيب كان من لسانه لا من قلبه ، والكلام من اللسان لا يتجاوز حدود الآذان.

## المعنى والنية

العمل - قول أو فعل - يبرز عن طريق الجوارح ويمكن أن يطلع عليه الناس لذلك يمكن تصنيفه تابعا للمبنى ، ويمكن للآخر (المستقبِل) أن يحسه ويلمسه ،



obeikandi.com

أما النية - كأمر معنوى بحت ومخبر نفسى لا يطلع عليه إلا الله - فهى حبيسة فى العقل (القلب) لا يدرك حقيقتها إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى ، وهى عمل عقلى. ولذلك فكل العبادات والطاعات أساسها لنية - كعمل قلبى - حتى ولو لم يتم العمل المادى أو حتى لو لم يحدث أصلا ، فالله يقبل كسر العمل ؛ لأن اكتمال العمل رهن بالطاقة المتاحة وتوفر الأسباب والتيسير ، لكنه - سبحانه وتعالى - لا يقبل كسر النية ، بل يجب أن تكون النية خالصة لوجهه الكريم ، هذا هو المعنى. ومن هنا أيضا تتضح أهمية العقل ، وخطورة عمل العقل.

وما فى القلب قد يظهر على الجوارح وقد يخفى أو يظهر عكسه بالتمثيل ، ولكن حين تصدق المعانى الخالصة فى القلب فإنها تبرز وتكسو الجوارح بالتقوى والخشوع ، ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ الآية 32 - سورة الحج . وما يقدم الإنسان من عمل الجوارح فأساس قيمته فى المعنى الذى فى قلب العامل ، ومثال ذلك غاية فى الوضوح فى قول الحق عز وجل: ﴿**لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ...**﴾ - الآية 37 - سورة الحج . فلا فائدة تعود على الله من لحم الأضحية ، بل إن أول المستفيدين بلحمها هو المُضحى نفسه ، وما يصل إلى الله هو مدى التقوى ، وهذا أمر معنوى (عقلى) ، أما المادة ففناء يدور فى فناء.

والأمثلة التى تؤكد تفوق المعنى على المبنى عديدة ، ومنها عملية التيمم – فى حالة تعدر الوصوء - فالمقصود هو معناه وليس الغسل ، وإن كان الغسل مطلوبا حين يتيسر . وأيضا صلاة أصحاب الأعذار والتى تجوز بدون حركات الجوارح اللازمة لتحقيق أركان الصلاة المعتادة ؛ فالمطلوب الأول هو معنى الوضوء ثم الوضوء ، ومعنى الصلاة ثم حركات الصلاة. إذن يمكن (ويجوز) عند الضرورة تجاوز المبنى لكن لا يجوز تحت أى ظرف تجاوز المعنى. وبهذه المناسبة قد نخلص إلى أن سجود العقل (القلب الداخلى) شرط لقبول الصلاة ، وسجود العقل يعنى اخلاص النية.

وحين نقارن بين الإنسان وباقى المخلوقات الملموسة من حولنا نرى الإنسان – بعقله – أقرب إلى المعنى ، والحيوان – كمثال مقابل – أقرب إلى المبنى ، كما سبق أن أوضحنا. فالبقرة على سبيل المثال يستفاد ببنيانها ومخرجاتها طوال حياتها ، ثم ينتفع بلحمها وجلدها وعظمها بعد ذبحها ، وعلى ذلك فقصتها تدور فى محيط المنافع المادية ، بدأت من التراب ثم انتهت إليه مرورا بسلسلة منافع للإنسان ، ولم تعمل فى حياتها ما يمكن أن نسميه خيرا أو شرا أو ما يحتسب على أنه نية ولا تنطبق عليها المعانى ، فلا تحملها لأذى الإنسان يعد صبرا ، ولا نفعها له يعد فضلا منها ؛ لأنها كانت طوال مدة نفعها مسخرة لا مختارة ، حتى حنوها على صغارها يدور فى محيط الغريزة ، ولا يعتبر فضيلة. لكن الإنسان معظم بنيانه المادى لذاته فى مدة حياته ولا ينتفع ببنيانه عند مماته ،

وحياته سلسلة من الأعمال (أفعال وأقوال) ذات المعـانى المحسـوبة لـه أو عليـه ؛ لأن له عقلا وإرادة واختيارا وقرارا.

وقصة الإنسان لا تنتهى بالموت ، بل تبدأ أشد فصولها جدية وتحديدا وإحكاما ، وتتجلى الحقائق التى كانت توصف بالغيبية وتتجسد المعانى التى كـانت منسية أو مخفية ، ﴿**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَـوْمَ حَدِيدٌ**﴾ الآية 22 – سورة ق ، يوم لا ينفع الندم ﴿... **يَوْمَ يَنظُـرُ الْمَـرْءُ مَـا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا**﴾ الآية 40 – سورة النبأ.

إنها قصة (قضية) معنوية الأساس ، فبيـان الإنسـان ومقدرتـه وإمكاناتـه الماديـة ليسـت مـن عنـد ذاتـه ، بـل هـى – فـى حقيقتهـا – مـن عنـد الله والإنســان مستخلف فيها أو مؤتمن عليها ليس إلا. فمن يتصدق إنما يتصدق من مـال الله ، ومن يبطش فباليد التى منحها الله إياه. ومن يبنى عمـارة أو طـائرة أو يصنـع قنبلة أو غير ذلك فكله من المواد التى خلقها الله وبالأسباب التى هيأها له المنعم سبحانه وتعـالى ، وكـل هـذه الأشـياء تفنـى ماديتهـا ولا يبقـى منهـا إلا المعنـى والقصد والنية ، ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إِلا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَـوْفَ يُـرَى**﴾ – الآيتان 39 و 40 – سورة النجـم. فسـعى الإنسـان رغـم مـا يغشـاه مـن تعاملات مادية إلا أن أساسه نية.

إن تمييز المعنى من المبنى يساعدنا في الإجابة على السؤال المُعمِّر : ما معنى الحياة؟؟ بتأمل المبنى المادى للإنسان ندرك أن المادة فانية وكذلك الحياة وكل بنايات الوجود ، لكن يبقى معنى الحياة المتمثل فى العمل ، إذن الحياة عمل يبقى معناه فلا يفنى ولا يضيع ، وهذا العمل يعنى استحقاق الجزاء الذى يناسبه (من صنفه) . والحياة ليست مجرد مجموعة نشاطات تنتهى بالموت وإلا كانت قمة العبثية!

obeikandl.com